

خطبة جمعة

دروس وعبر من قصة جريج العابد

لفضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشَّيْخُ لم يراجع التَّفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[الخطبة الأولى]

الحمد لله الذي يُنعم على عباده وأحبابه بالثبات على دينه وإيثار مرضاته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله وصفيه وخليفه، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم اللهم تسليماً كبيراً.

أما بعد..

فأوصيكم ونفسي إخوة الإيمان بتقوى الله عز وجل، وبالسعي في مرضيه، والتسابق إلى جناته، فإن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بهما تحصل التقوى، وبهما يحصل الارتفاع في جنات الكرامة ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً ﴿٧٠﴾ [النساء].

أيها المؤمنون، لقد قص علينا رسول الله ﷺ في أحاديثه الكريمة الشريفة قصصاً متنوعة، فيها العبرة والعظة، كما أن فيها العلم الواسع والعقيدة الراسخة التي من أخذ بها أنارت قلبه، وشرحت صدره إلى حقائق الإيمان، وللعمل بما جاءت به الرُّسل عليهم صلوات الله وسلامه.

وإن من تلك القصص العجيبة التي ذكرها محمد بن عبد الله رسولنا -عليه الصلاة والسلام- قصة جريج، وما كان فيه من الحال، وما ابتكت به بنو إسرائيل جريجاً من الابتلاء بفتنة النساء، وما أنقذه الله به من تلك الفتنة العظيمة.

روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» أن المصطفى ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ. وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ.

وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، [فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ]. فَانْصَرَفَتْ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي. فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، [فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ]. فَانْصَرَفَتْ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، [فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ]. فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ، لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ».

قال رسول الله ﷺ: «فَتَذَاكَّرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ. وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يَتِمَّلُ بِحُسْنِهَا. فَقَالَتْ: إِنِّي شَيْءٌ لَا فِتْنَةَ لَكُمْ. قَالَ: فَتَعَرَّضْتُ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا. فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمَكَّتْهُ مِنْ نَفْسِهَا. فَوَقَعَ عَلَيْهَا. فَحَمَلَتْ. فَلَمَّا وَلَدَتْ. قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ، فَاسْتَزَلُّوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ. فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهِذِهِ الْبَغِيَّةِ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ. فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيِّ؟ فَجَاءُوا

به، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ، فَصَلَّيْتُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ. وَقَالَ: يَا غَلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي. قَالَ: فَأَقْبِلُوا عَلَيَّ جُرَيْجٌ يَقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ. وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ»^(١).

«والثالث الذي تكلَّم في المَهْد هو غلامٌ كان يَرُضِع من ثَدْيِ أُمِّه، وكان عليه الصلاة والسلام يَصِفُ كيف يَرُضِع حيث كان الرضيعُ يضع إصبعه الكبري في فيه، فأقبل رجلٌ ذو شارةٍ أي منزلة وهيئة حسنة يُشارُ إليه، على دَابَّةٍ فارِهِةٍ، كانت الدابةُ على أحسن ما يُركَب من الدَّوَابِّ، فقالت الأُم والوليدُ في حَجْرِهَا يَرُضِع من ثَدْيِهَا: اللَّهُمَّ، اجعل ابني مثلاً هذا. فترك الغلامُ ثَدْيَ أُمِّه، وقال: اللَّهُمَّ، لا تجعلني مثلاً هذا. ومَرَّت الأُم ورَضِعُهَا بعد ذلك على جاريةٍ تُضْرَبُ، ويقولون لها: زَنَيْتِ سَرَقَتِ. وهي تقول: حَسْبِيَ اللهُ ونِعَمَ الوكيل، فقالت الأُم: اللَّهُمَّ، لا تجعل ابني مثلاً هذه. فترك الغلامُ ثَدْيَ أُمِّه، وقال: اللَّهُمَّ، اجعلني مثلاً هذه.

فلما تَرَجَعَا الحديث، قالت: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنَ الهَيْئَةِ، فقلتُ: اللَّهُمَّ، اجعل ابني مثلاً، فقلتُ: اللَّهُمَّ، لا تجعلني مثلاً. ومَرُّوا بِهِذِهِ الأُمَّةِ وهم يضربونها ويقولون: زَنَيْتِ، سَرَقَتِ. فقلتُ: اللَّهُمَّ، لا تجعل ابني مثلاً. فقلتُ: اللَّهُمَّ، اجعلني مثلاً. قال: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا. فقلتُ: اللَّهُمَّ، لا تجعلني مثلاً. وَإِنْ هَذِهِ يقولون لها: زَنَيْتِ. ولم تَزِنْ. وسَرَقَتِ ولم تَسْرِق. فقلتُ: اللَّهُمَّ، اجعلني مثلاً»^(٢).

فهذا الحديث أيها المؤمنون، فيه عبرٌ كثيرة، ونَحْصُ منها قصةُ صاحبِ جُرَيْجٍ وما وَقَعَ لَجُرَيْجٍ، وما وقع لصاحبه وهو وَلَدُ الرَّاعِي من الابتلاء، وما أَنْطَقَهُ اللهُ به، فَجُرَيْجٌ كان من بني إِسْرَائِيلَ، وكان في دِيانَتِهِمْ جَوَازُ البعد عن الناس والتفرغ للعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارَعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

كان جريج رجلاً عابداً، فاخْتَلَى بنفسه في صومعته يُصَلِّي، فَأَتَتْهُ أُمُّه، والوالدُ والوالدةُ يشْتَاقُونَ إلى الْوَلَدِ، فَطَلَبَتْهُ أُمُّه، وكانت الصومعةُ في مكان مرتفع، فنَادَتْهُ أُمُّه من تحت الجبل: يَا جُرَيْجُ. وكان في صلاة نَفْلٍ، وكان ينبغي له أن يُجِيبَ أُمَّهُ؛ لأنَّ إجابة الْوَالِدِ في مثل هذا الْحَالِ فَرَضٌ، فقال: أَي رَبِّي، أُمِّي وصَلَّاتي. فلم يُجِبْ أُمَّهُ، وانصرف إلى صَلَاتِهِ، فتركته أُمُّه، وَأَتَتْهُ من غَدٍ، فنَادَتْهُ فلم يجب، ثم أَتَتْهُ الثالثة فلم يُجِبْ نداء أُمِّه، فدعت عليه أُمُّه بقولها: اللَّهُمَّ، لا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ. وفي هذا عِبْرَتَانِ:

الأولى: أن دعاء الوالد على وَلَدِهِ، ودُعَاءُ الْوَالِدَةِ على وَلَدِهَا يُخَشِي منه، فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، ودَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى

(١) أخرجه البخاري (٣ / ١٠٩٨، رقم ٢٨٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٣)، ومسلم (رقم ٢٥٥٠).

وَلَدِهِ»^(١)، فإن دعوة الوالد أو دعوة الأم على وَلَدِهَا إذا تركها وعَقَّهَا، ولم يُجِبْ دَعْوَتَهَا ولم يَصِلْهَا، ولم يَبْرَهَا فإن دعوتها مُجَابَةٌ، يعني: على رجاء الإجابة إذا دَعَتْ.

فانظروا إلى دعوة الأم على هذا العبد الصالح بأن يُرِيَهُ اللهُ وَجْوهَ المومِسات، حيث قالت: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وَجْوهِ المومِسات. فأجاب الله دَعْوَتَهَا، وابتلي ذلك الرجل الصالح بأعظم ما يَكْرَهُهُ وأَبْلَغ ما يَبْغُضُهُ ألا وهو رُؤية وَجْوهِ المومِسات الذين تَنَفَّطُ قُلُوبُ أهل الإيمان إذا رَأَوْهُنَّ؛ لأجل ما هم عليهم من الخَنَا والفُجُور، ومن معصية الله، ومن مُبَارَزَتِهِ بكبيرة من الكبائر، فأتته المرأة المومِسة ورؤية المومِسات تَأْبَاهَا الفِطْرَةُ السليمة، تَأْبَاهَا القُلُوبُ المؤمنة؛ لأن المومِسة يعلم صاحب الإيمان أنها صاحبة كبيرة، ويعلم أنها صاحبة جُرم، وصاحبة إشاعةٍ للفاحشة في الذين آمنوا، فكيف يحب؟ وكيف يُشْنِي؟ بل كيف ينظرُ ويُسِّرُ برؤية مَنْ يَقْتَرِفُ كبيرة؟ بل وَمَنْ ينشرها في الناس، ويجاهر بأنه يفعل ذلك، كما فعل بنو إسرائيل حيث كانت المومِسات لهن شأن كبير عندهن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(٢) حيث انتشرت فيهم المومِسات، وانتشرت فيهم النساء ذَوَات الخَنَا، وذَوَات الفُجُور، حتى تَفَشَّى ذلك في بني إسرائيل، فجزاهم الله جل وعلا بأن فرَّقهم وجعلهم شَذَرَ مَذَرَ أي مُتَفَرِّقِينَ، كما هو معلوم في قصص كثيرة في الكتاب.

هكذا، فقد دَعَتْ الأم على ولدها بهذه الدعوة التي لو عَلِمَ بها جُرِيحٌ، لَمَشَى حافياً مسافاتٍ طويلةً كَرَاهَةً أَنْ تتحقق هذه الدعوة، فينظر إلى وجوه أَبْغَضِ الخلق إلى أهل الإيمان، ألا وهُنَّ الفاجرات المومِسات.

قال عليه الصلاة والسلام: «تَذَاكُرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرِيحًا وَعِبَادَتَهُ. وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَعْغِي يَتِمَثَّلُ بِحُسْنِهَا. فَقَالَتْ: إِنَّ شَيْئًا لَا فِتْنَتَهُ لَكُمْ. قَالَ: فَتَعَرَّضْتُ لَهُ»^(٣) وفي هذا عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ أَنَّ الأناس الذين فيهم الفساد والفجور لا يَرْضَوْنَ أَنْ يكونَ ثَمَّ أناسٌ صالحون، بل يَهْوَوْنَ أَنْ يكونَ الجميعُ على مَشْرَبٍ واحدٍ، فينتشر فيهم الفساد والخَنَا، حتى لا يَرْفَعَ الصالحُ رأسه، ويُنكَرَ المُنْكَرَ على أولئك الفَجَرَةِ.

وهذا الأمرُ سُنَّةٌ أَخَذَهَا الْخَالِفُ عَنِ السَّالِفِ، فأهل الفُجُورِ لا يَهْدَءُونَ إِلَّا إِذَا أَفْسَدُوا النَّاسَ، وَأَفْسَدُوا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ بِخَاصَةٍ، فَتَارَةً يَتَعَرَّضُونَ لَهُمْ بِصَرِيحِ التَّعَرُّضِ، وَتَارَةً بِبَثِّ الدَّعَايَاتِ، وَبَثِّ الشَّائِعَاتِ الَّتِي تَنْقُصُ مِنْ قَدْرِهِمْ، أَوْ يُزِمُّ فِيهَا أَهْلَ الصَّلَاحِ بِأَنْوَاعٍ مَا يُرْمَوْنَ فِيهِ مِنَ الْإِفْتِرَاءَاتِ؛ لَكِي لَا يَتَأَثَّرَ النَّاسُ بِعِبَادَتِهِمْ، وَلَا يَتَأَثَّرَ النَّاسُ بِصَلَاحِهِمْ، وَلَا يَقْتَدِي النَّاسُ بِأَوْلَئِكَ الصَّالِحِينَ، بل يقول الناس: إِنْ كُلُّ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ فِيهِمْ مَا فِيهِمْ مِنَ الْفَسَادِ، وَالرَّغْبَةِ فِي كَذَا وَكَذَا مَا لَا يَصَحُّ، فَيَنْعَدِمُ التَّأَثُّرُ أَوْ يَقِلُّ، فَيَضَعُفُ نَشْرُ الْحَقِّ وَالصَّلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ.

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٥٣٦)، والترمذي (رقم ٣٤٤٨) وقال: حسن.

(٢) أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٩٨، رقم ٢٧٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٣)، ومسلم (رقم ٢٥٥٠).

فقد ذَهَبَتِ المرأةُ الْمُؤْمِسُ إِلَى جُرَيْجٍ، وَتَعَرَّضَتْ لَهُ، وَقَدْ كَانَ يَشَارُ إِلَيْهَا فِي الْحَسَنِ، ذَهَبَ وَتَعَرَّضَتْ لَجُرَيْجٍ، لَكِنَّهُ أَبَى، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ عَمَرَ قَلْبَهُ بِحُبِّ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَحُبِّ الصَّلَاةِ، وَحُبِّ مُنَاجَاةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالْمُحِبُّ يَنْشَغُلُ بِحَبِيبِهِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَيُؤْثِرُ رِضَاهُ عَلَى كُلِّ مَلَذَّاتِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا تَعَرَّضَتْ لَهُ وَأَبَى، انْصَرَفَتْ عَنْهُ، وَلَمْ تَرُضْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِهَا الْفَجْرَةِ خَائِبَةً، فَذَهَبَتْ إِلَى الرِّعْيِ، وَتَعَرَّضَتْ لَهُ، وَمَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا حَتَّى وَاقَعَهَا، فَحَمَلَتْ مِنْهُ، ثُمَّ وَضَعَتْ حَمْلَهَا، وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُؤْمِسَاتِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ، فَإِنَّهَا تَكْفُفُ عَنِ الْبِغَاءِ حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا، ثُمَّ يُلْحَقُ الْمُؤْلُودُ بِأَبِيهِ. فَلَمَّا وَلَدَتْ فَقَالُوا: مِمَّنْ هَذَا؟ قَالَتْ: أَبُوهُ جُرَيْجٌ، فَانْطَلَقُوا فَرَحِينَ إِلَى جُرَيْجِ الْعَابِدِ الصَّالِحِ، فَأَنْزَلُوهُ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَأَخَذُوا يَهْدُمُونَهَا وَيَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا شَأْنُكُمْ؟ وَلَمْ يَكُنْ يَذَرِي مَا أَعَدَّ لَهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَأَعْدَاءُ رُسُلِهِ وَأَعْدَاءُ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْ تِلْكَ الْمَكِيدَةِ، لِذَلِكَ قَالَ لَهُمْ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَيْنَتْ، وَجِيءَ لَكَ بَوْلِدٌ. فَقَالَ: أَيْنَ الْغَلَامُ؟ فَلَمَّا أَتَوْا بِهِ لَمْ يَسْتَعْجَلْ فِي سَوْأِهِ، أَوْ فِي مُحَاوَرَتِهِ، فَهُوَ وَلِيُّ مَنْ أَوْلِيَاهُ اللَّهُ؛ لِذَلِكَ أَتَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا بِصَلَاتِهِ، فَكَانَ مَخْرُجُهُ الصَّلَاةَ، وَكَانَ مَخْرُجُهُ الدُّعَاءَ، وَكَانَ مَخْرُجُهُ وَالْمُنْقِذُ لَهُ تَذَلُّهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا كَانَ اللَّهُ مَعَهُ، وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فِي السَّرَّاءِ، كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فِي الضَّرَّاءِ، فَلَمَّا صَلَّى وَدَعَا تَوَجَّهَ إِلَى الْغَلَامِ، فَطَعَنَ بَطْنَهُ بِإِصْبَعِهِ، أَيُّ: أَشَارَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غَلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ وَلَكِنْ هَلِ الْغَلَامُ الصَّغِيرُ الَّذِي وُلِدَ مِنْ سَاعَتِهِ هَلْ يَنْطِقُ أَوْ يَتَكَلَّمُ؟ !، وَلَكِنْ جَرِيحًا قَدْ رَجَا أَنْ يُنْقِذَهُ رَبُّهُ جَلَّ وَعَلَا مِنْ ذَلِكَ الْإِتْهَامِ، وَلَيْسَ أَمَامَهُ إِلَّا مِثْلُ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ، فَنَطَقَ الْغَلَامُ، أَنْطَقَهُ لَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَهُ، نَطَقَ الْغَلَامُ بِإِنطَاقِ الْكَرِيمِ الَّذِي يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، نَطَقَ الْغَلَامُ، فَقَالَ: أَبِي فُلَانُ الرَّاعِي. فَأَقْبَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ اعْتِذَارًا، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، فَقَدْ كَانَ مِنَ الْجَائِزِ عِنْدَهُمُ التَّمَسُّحُ بِالصَّالِحِينَ بِخِلَافِ مَا جَاءَ فِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّمَسُّحُ بِالصَّحَابَةِ وَلَا بِالصَّالِحِينَ وَلَا بِالْأَوْلِيَاءِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُصْطَفَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - حَيًّا.

أَقْبَلُوا عَلَيْهِ، وَقَالُوا لَهُ: نَبَنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. فَهُمْ يُرِيدُونَ الْعِذَارَ بِالدُّنْيَا، فَيُعْظَمُونَ جَزَاءَهُ وَاعْتِذَرَاهُمْ إِلَيْهِ عَمَّا فَعَلُوا بِتَقْدِيمِ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ هَلِ الدُّنْيَا تَسَاوِي شَيْئًا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ حِينَمَا يُتَكَلَّمُ؟ ! وَهَلِ الدُّنْيَا تَسَاوِي شَيْئًا فِي قَلْبِ الْمُسْتَأْنَسِ بِاللَّهِ، الْمُسْتَأْنَسِ بِمَرَاضِيهِ، الْمُسْتَأْنَسِ بِتَوْحِيدِهِ؟ فَقَالَ لَهُمْ: لَا، إِنَّمَا أُعِيدُوا بِنَاءَ صَوْمَعَتِي كَمَا كَانَتْ مِنْ طِينٍ؛ لِأَنَّ فِي قَلْبِهِ إِشَارًا لِلْآخِرَةِ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٧٧] [القصص].

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِيهَا عِظَاتٌ وَعِبَرٌ بِالْغَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ:

أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَكْرَهُ أَهْلَ الْفُسَادِ وَالْخَنَاءِ، وَلَا يُسَرِّ بِهِمْ، وَهَذَا نَقُولُهُ تَذَكِيرًا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ؛ لَكِي لَا يَتَسَاهَلُوا فِي هَذَا الزَّمَنِ بِرُؤْيَا أَهْلِ الْخَنَاءِ وَالْفُجُورِ وَالْفُسَادِ، فَإِنَّ رُؤْيَا الْفَاجِرَاتِ يُغْرِمُ لَهَا الْقَلْبَ. فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَمَا صَلَّى صَلَاةَ الْكُسُوفِ، وَخَطَبَ فِي النَّاسِ خُطْبَتَهُ الَّتِي قَالَ فِيهَا: «يَا أُمَّةَ

مُحَمَّدٍ، وَاللَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِي عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِي أَمَّتُهُ^(١). فقال بعض أهل العلم: ذكر المصطفى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الزَّنا في خطبته لما كسفت الشمس ؛ لأجل عِظَمِ المُنَاسِبَةِ بَيْنَ الزَّنا وَبَيْنَ كَسُوفِ الشَّمْسِ، فَإِنَّ الزَّنا وَوَسَائِلَهُ يُطْفِئُ نُورَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّ الْكُسُوفَ يُطْفِئُ نُورَ الشَّمْسِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُشَاهِدٌ مُلَاحَظٌ، فَلَأَجْلَ هَذَا يَنْبَغِي عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَحْذَرَ مِنَ التَّسَاهُلِ وَالسُّرُورِ بِرُؤْيَا وَجُوهِ الْفَاجِرَاتِ وَالْفَاجِرِينَ، وَأَنْ لَا نَسْتَأْنِسَ بِذَلِكَ، فَإِنَّ ذَلِكُمْ مُخَالِفٌ لِلْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، فَذَلِكُمْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ دُعِيَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ، وَهَلْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ لَوْ دُعِيَتْ عَلَى أَحَدٍ مِمَّنْ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، هَلْ تَسَاوَى شَيْئًا ؟ وَإِنَّمَا لِعَظِيمَةِ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

ثم إن من فوائد هذه القصة أن العبد الصالح يجعلُ له الله بتقواه من كل همٍّ أو ضيقٍ فرج، ومن كل بلاءٍ عافيةً، ويجعل الله جل وعلا كُلَّ مَا كَادَتْهُ النَّاسُ أَوْ كَادَتْهُ الْأَرْضُ لَهُ مِنْ بَيْنَهُمَا مَخْرَجًا.

فَأَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ الْجَوَادَّ الْمَنَّانَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ بِالثَّبَاتِ أَنْ يَجْعَلَ لِي وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ عَمَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَصَفَتْ قُلُوبُهُمْ لِلوَاحِدِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ أَنْسُوا لَكَ، وَأَنْسُوا بِذِكْرِكَ وَعَظَمُوكَ وَأَبْغَضُوا الْخَلْقَ فِيكَ وَأَحَبُّوا فِيكَ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ »^(٢) فَإِنَّمَا تَنَالُ وَلَايَةَ اللَّهِ بِذَلِكَ.

أَسْأَلُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ الْحُسْنَ فِي الْعَمَلِ، وَالْحَسْنَ فِي الْقَوْلِ، وَالْحَسْنَ فِي الْإِعْتِقَادِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَعْمَالَنَا وَقُلُوبَنَا صَالِحَةً، إِنَّكَ جَوَادُّ كَرِيمٌ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنَّا ۖ وَزَرَكَ ۖ ۝٢ أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۖ ۝٨ ﴾ [الشرح].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفَعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم، ولسائر المؤمنين من كل ذنب، فاستغفروه، وتوبوا إليه إنه هو الغفور الرحيم.

[الخطبة الثانية]

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين. أما بعد..

فإن أحسن الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هديُّ محمد بن عبد الله، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكُلُّ مُحدثَةٍ بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وعليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٩٧)، ومسلم (رقم ٩٠١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٨١)، والترمذي (رقم ٢٥٢١).

وعليكم بلزوم تقوى الله، فإن بالتقوى رفعتكم وفخاركم، فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

هذا، واعلموا رحماني الله وإياكم أن الله جل جلاله أمرنا بالصلاة على نبيه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، وارض اللهم عن الأربعة الخلفاء الأئمة الحنفاء الذين قصوا بالحق، وبه كانوا يعدلون، وعنهم بعفوك، ورحمتك يا أرحم الراحمين، وعن سائر الصَّحْبِ والآل، ومن تبعهم بإحسان وأنت أرحم الراحمين. اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، واهزم حوزة الدين، وانصر عبادك الموحدين.

اللهم آمنا في دُورنا وأصلح أئمتنا، وولاة أُمُورنا، وذُلهم اللهم على الرِّشَادِ، وباعد بينهم وبين سُبُلِ أهل البَغْيِ والفساد، وأنت أكرم الأكرمين، وأنت مُجِيبُ السَّائِلِينَ. اللهم نسألك أن تكف عنا كيد الأشرار، اللهم من كادنا فكده، ومن أراد بنا شرًا في ديننا، أو في دُنيانا أو في أَهْلِينَا، اللهم فاشغله في نفسه، ورد كيده في نحره، فإنك أنت القوي العزيز. اللهم ارفع عنا الرِّبَا والزُّنَا وأسبابهما، وادفع عنا الزلازل والمحن وسوء الفتن ما ظهر منها وما بطن عن هذه البلاد بخاصة، وعن سائر بلادنا بعامية، وأنت أكرم الأكرمين.

عباد الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل]، فاذكروا الله العظيم يذكركم، واشكروه على النعم بالسيِّئَاتِ وَأَعْمَالِكُمْ يَزِدُّكُمْ، ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت].